(سمو دلالة الألفاظ وانحطاطها في اللغة العربية) لحمود الشِعلي

عرض ونقد: عباس السوسوة

العمل الذي نعرض له هو رسالة ماجستير للطالب حمود يحيى علي الشعلي، نوقشت وأجيزت في قسم اللغة العربية بجامعة الملك خالد يوم ٢٨ من رجب ١٤٣٧.

تقع الرسالة في مائة وإحدى وسبعين (١٧١) صفحة توزعت على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول، ذيلت بخاتمة فيها أبرز نتائج البحث ثم قائمة المصادر والمراجع البالغ عددها مائة وسبعة وستين (١٦٧) مرجعا.

نبَّه الباحث في المقدمة (ص ١-٣) على أن أكبر تغير في اللغة يكون في دلالة الألفاظ، مشيرا إلى ما سماه علماء الدلالة مظاهر التطور الدلالي وأشكال التطور الدلالي التي أجمعوا عليها في قوانين التخصيص والتعميم وانتقال المجال الدلالي. وذكر أن ثمة قانون السمو والانحطاط في الدلالة وهو قانون لم يحظ من قبلُ بالدراسة والبحث؛ فكل ما صُنف في علم الدلالة من كتب وبحوث لم يتجاوز ما في كتابي «دلالة الألفاظ» لإبراهيم أنيس (١٩٥٨م)، و«علم الدلالة» لأحمد مختار عمر (١٩٨٢م) من ألفاظ وصور، فكان ذلك من بواعث اختيار الباحث لهذا

الموضوع الذي عنون به رسالته: «سمو دلالة الألفاظ وانحطاطها في اللغة العربية بين معجمي لسان العرب ومعجم اللغة العربية المعاصرة، دراسة دلالية تاريخية»، وكان اختيار المجال التطبيقي للدراسة موزعا بين معجمين يمثلان عصرين مختلفين، وهما لسان العرب لابن منظور الذي يمثل الدلالة القديمة للفظ ومعجم اللغة العربية المعاصرة الذي يمثل الدلالة الحديثة.

في التمهيد (ص٤-١٣) ذكر أن دراسة تغير دلالة الألفاظ في العربية هي الفريضة الغائبة عند الباحثين إلا ما رحم ربك، وأن معرفة الأحوال التي تقلبت فيها دلالة اللفظ حتى وصلت إلينا في القرن الخامس عشر الهجري-على وجه يقرب من اليقين- أمر بالغ الصعوبة، واللجوء فيها إلى المعاجم القديمة وحدها لا يفيد في أكثر الأحوال، بل لا بد من اللجوء إلى النصوص المختلفة لمعرفة ذلك. وذكر الباحث أنه اعتمد المنهج التاريخي عند تتبع دلالة الألفاظ سموا أو انحطاطا.

بعدها انتقل إلى ذكر الدراسات السابقة (الصواب: المشابهة) التي تناولت السمو والانحطاط في الدلالة فذكر أن من أبرزها:

١- «دلالة الألفاظ» لإبراهيم أنيس ١٩٥٨؛ فقد تناول في فصله السابع تطور الألفاظ ممثلا على ذلك بأمثلة قليلة من العربية الفصيحة والعامية المصرية. وذكر في فصله الثامن عوامل تطور الدلالة وأسباب تغيرها. وتحدث في الفصل التاسع عن أعراض التطور الدلالي ومظاهره، فذكر منها:

التخصيص والتعميم وانتقال مجال الاستعمال، مركزا على الجانب النظري كثيرا.

٢- «لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة» لعبد العزيز مطر ١٩٦٦. وأشار فيه المؤلف إلى بعض الألفاظ التي تغيرت سموًّا أو انحطاطا في ستة من كتب لحن العامة.

٣- «تطور دلالة الألفاظ في لغة الصحافة المصرية من ١٩٥٠-١٩٧٣»، لمحمد يوسف حبلص. رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٨٤. درس فيها صاحبُها تطور الألفاظ ذاكرا المجالات التي انطلقت منها والتي انتقلت إليها، وكان فيها ألفاظ تغيرت دلالاتها سموا أو انحطاطا.

٤- «علم الدلالة» لأحمد مختار عمر ١٩٨٢. ولم يتجاوز أستاذه إبراهيم أنيس في هذا الجانب.

٥- «ظاهرة الابتذال في اللغة والنقد» لمحمد علي رزق الخفاجي ١٩٨٦. وتحدث عن ظاهرة الابتذال والانحطاط في مستويات العربية بعامة، الفصيح منها وغير الفصيح، لكنه ركز على اللغة المستعملة في الأسواق أكثر من غيرها.

ثم انتقل الباحث إلى الحديث عن المعجمين اللذين هما مجال الدراسة في أربع صفحات، فالأول حصيلة خمسة من أكبر

المعاجم القديمة، والثاني أعده فريق عمل مكون من واحد وعشرين باحثا متخصصا بإشراف الدكتور أحمد مختار عمر، واستُخدمت فيه تقنية حاسوبية متقدمة في مسح النصوص والمواقع التي تجاوز عددها مئة مليون كلمة ومثال.

الفصل الأول (التغير الدلالي ص ١٤-٢٥)

ذكر أن دلالات الألفاظ أكثر عرضة للتغير في لغتنا موازنة ببقية أنظمة اللغة الصوتية والصرفية والنحوية المتميزة بثبات نسبي. ونظرة واحدة في صحيفة يومية تريك أن أكثر ألفاظها متغيرة في دلالتها عما سجلته المعاجم القديمة؛ فبعضها عُممت دلالته بعد أن كانت خاصة، والعكس صحيح أيضا، وبعضها تغيرت دلالته بالانتقال المجازي بسبب المجاورة أو السببية أو اعتبار ما كان، وغير ذلك من طرق النقل. ثم نبه الباحث على أسباب التغير الواردة عند الدلاليين العرب، وهم فيه عالة على إبراهيم أنيس في «دلالة الألفاظ»، وذكر أنه سيوردها كما فعلوا، مع إضافات من غيرهم للإيضاح.

وقد أرجع أسباب التغير إلى الاستعمال الذي من أوضح عناصره: سوء الفهم وبلى الألفاظ والابتذال، والحاجة المتجددة التي فرضها التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

الفصل الثاني (سمو دلالة الألفاظ ص٢٦-٨٥)

سمو الدلالة هو ما يصيب الكلمات التي كانت تشير إلى معان هينة، أو وضيعة، أو ضعيفة نسبيا؛ ثم انتقلت دلالاتها وصارت

تدل على معان أرفع أو أشرف أو أقوى من معانيها القديمة في نظر الجماعة الكلامية. واللفظ قد يسمو من كل جوانبه فتندثر دلالته القديمة، وتحل الجديدة مكانها تماما. وقد تبقى معها جنبا الى جنب. وقد تنتقل دلالة اللفظ إلى السمو في جانب من جوانب استعماله دون بعض. وللسياق أثره البارز في تحديد المراد؛ إذ يتحدد السمو بوجود علاقة مع كلمات أخرى. ونبه الباحث على أن أمثلة أنيس أكثرها من عامية أهل مصر، وأنه لم يُعنَ بذكر شواهد من الفصحى فضلاً عن تتبعها عبر الزمن، وكذلك فعل خلفاؤه.

بعد ذلك درس الباحث تسعة وثلاثين لفظا (٣٩) سمت دلالتها في العربية المعاصرة مقابلة بما كانت عليه في لسان العرب. وهي: شاطر، صحفي، صيحة، ضفادع، الرائد، المسرح، الزميل والزمالة، أسطورة، مساعد، السفرة، الاستعراض، عقيد، عقال، النخوة، الناطق، نفاثة، النوط، الهاتف، الحقيبة، الوسام، وظيفة، البحث، المجلس، الجريدة، الجالية، انخرط، التخطيط، خلاب، الفلتة، قماش، كأس، الملحق، التصفيق، ورقة، الفنان، مخضرم، مسئول، معلق، المنتجع. (لاحظ غياب الشقاوة والشقي، والباقة).

الفصل الثالث (انحطاط دلالة الألفاظ. ص٨٦-١٥٦)

ذكر الباحث أن دلالة الانحطاط في العربية أكثر من دلالة السمو، وأنه لم يعثر على أسباب مقنعة في ذلك، ونبه على أن

القول بانحطاط دلالة اللفظ لا يلزم أنه كان يحمل دلالة عالية القدر؛ فمن الممكن أن تكون دلالته السابقة محايدة لا يحكم عليها بسمو ولا انحطاط، أو تكون هابطة نسبيا ثم تزداد انحطاطا.

ثم درس تسعة وثلاثين لفظا (٣٩) انحطت دلالتها في العربية المعاصرة عما كانت عليه في اللسان وهي: النكتة، مروِج، الزعل، المتزمت، التزوير، سابقة، السفَّاح، السائح، التطرف، الإعدام، عصابة، بؤرة، مباءة، مدمن، شهوة، اقترف، الاستهتار، الدعاية، الاستعمار، مرتزق ومرتزقة، الغانية، نازح، وكر، الملحمة، ميوعة ومائع، الاغتصاب، البهلول والبله، جنسي، تربص، مؤامرة، قرية، قناصة، بربري، نامية، انقلاب، تصفية، الإغراء، الإنجاب، التطهير.

الخاتمة (١٥٧-١٥٨)

وعدَّ فيها ثلاث عشرة نتيجة طلب منه المناقش الخارجي حذف أربع منها؛ لأنها عامة غير مقصورة على موضوع السمو والانحطاط. ووافقه المشرف مسوغا صنيع الطالب بأن بعض المناقشين المتنطعين قد يستقلها.

١- أكثر الدراسات الدلالية اهتم بالجانب النظري أكثر من التطبيق، ناهيك عن أن الجانب التاريخي فيها يكاد يكون غائبا!

٢- التغير الدلالي يأتي متدرجا بطيئا لا يكاد يلحظ.

٣- هناك ألفاظ لم يقر لها قرار فهي مترددة بين السمو والانحطاط.

٤- هناك ألفاظ كانت دلالتها عامة لا نلمس فيها جانبي السمو والانحطاط معًا، تخصصت دلالتها في عصرنا فسمت مثل الشاطر، الاستعراض، أو انحطت مثل التزوير، الإدمان، الاقتراف.

٥- هناك ألفاظ كانت دلالتها عامة لكن لا نلمس فيها جانب السمو والانحطاط، سمت في جانب من جوانبها عندما تخصصت في عصرنا مثل: مسئول، تصفيق، ومنها ما تخصص في جانب فانحطت دلالته مثل: قرية، انقلاب، بربري.

٦- هناك ألفاظ انتقلت من مجال لآخر فصارت دلالتها سامية بعد أن كانت منحطة مثل: وسام، النخوة، صحفي. ونقيض ذلك ألفاظ انتقلت دلالتها من سمو إلى انحطاط فلم يعد للدلالة السامية استعمال مثل: قماش، الاستعمار، مؤامرة، البهلول، الدعاية.

٧- هناك ألفاظ منحطة الدلالة قديما وزادت دلالتها انحطاطا بتخصصها في مجال ما، مثل الاغتصاب، الإغراء.

٨- للتلازم أثر كبير في توجيه دلالة اللفظ؛ فبه نصل إلى المراد دون لبس مثل: ضفادع بشرية، حقيبة وزارية، تطهير عرقي، ورقة عمل، الناطق الرسمي.

٩- بعض الألفاظ تسمو دلالته أو تنحط ومعها كل مشتقاتها أو أغلبها مثل: استهتار، إنجاب، وبعضها ليس كذلك مثل: الجنس وجنسي، غلب استعمالها فيما يتعلق بالاتصال الشهواني، أما باقي اشتقاقاته فلا. وهناك الزمالة من الزميل هي وحدها اكتسبت سموا في دلالتها.

وقد أثنى المناقشان على عمل الباحث ووصفاه بالجدة والجدية وأنه أول عمل جامعي يبحث هذه الظاهرة في العربية وأن مراجعه مستوفاة. وانتقدا مواضع فيها التواء في التعبير -أصلحت فيما بعد- وحماسة مفرطة تخرج عن العلم. وتفرد المناقش الخارجي بنقود منها:

١- أنه رغب إلى الطالب أن يدمج الفصل الأول بالتمهيد.

٢- تساؤله: هل يدخل الرجوع إلى معجمين في المنهج التاريخي؟ وكان أنْ رد المشرف: لو كان رجوعا مجردا ليس فيه إلا أن اللفظ هنا معناه كذا، وهناك معناه كيت، فليس بدرس تاريخي. أما في حالة الطالب فالأمر يختلف؛ إذ إن (لسان العرب) عنده النقطة الزمنية الأولى لدلالة اللفظ في العربية، و(معجم اللغة العربية المعاصرة) هو النقطة الزمنية الثانية والأخيرة وما بين المعجمين هو المدة الزمنية للانتقال والتغير في الدلالة سموا وانحطاطا، فهو من هذه الناحية يعد درسا دلاليا تاريخيا. والدرس التاريخي لأي ظاهرة لا يعني تتبعها في كل السنين أو القرون، بل

يكفي رصدُها عبر نقطتين زمنيتين مختلفتين. ومع ذلك فالطالب لم يكتف بنقطتين بل كان يتوسع في التتبع بالقدر الذي تسعفه مصادره ووقته؛ فكان يأتي بنصوص من سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وتفسيره ومؤلفات ابن جني والصفدي ولآبي والزمخشري وغيرهم.

٣- ما الحكمة في أن الألفاظ المدروسة ٣٩+٣٩=٧٨؟

وكان ردُّ الطالب أن هذا العدد عينة، وأنه لم يكن يعرف العدد قبل اختيار الألفاظ وترقيمها، فالتوافق في العدد مجرد مصادفة. وقد وافق المشرف على كلامه مضيفًا أن هناك ألفاظًا تركها الطالب بعد أن اختبرها، وألفاظا لم يتناولها لعدم وجود الدلالتين السامية أو المنحطة في المدونتين مثل: باقة، التي كانت تلازم: باقة بقل، باقة شوك، باقة حطب. ثم صارت دلالتها سامية لمصاحبتها الزهر، والرياحين، والورد.

٤- كان الطالب واعظًا ثقيل الظل في مواضع من عمله (ذكر أمثلة). ودافع المشرف عنه بعض الدفاع بأنه ينبغي أن نترك للباحث حرية إبداء رأيه حتى لو لم يعجبنا.

والحق أن المناقش الخارجي على صرامته العلمية بشوش الوجه دائم الابتسامة، يلاحظ وينتقد بهدوء دون أن يرعد

ويبرق، أو يسيء إلى الطالب، بأن يقول له مثلا: لمْ تصنعْ شيئا، من أنت حتى يكون لك (عند)؟

وقد زاد المشرف فبيَّن أن الذين تناولوا موضوع سمو الدلالة وانحطاطها بالعربية أغلبهم عزا ذلك إلى تغير الأوضاع السياسية أو إلى ترك ما يستقبح ذكره، أما الطالب فتجاوز ذلك إلى أمور لغوية، أشرنا إلى بعضها عند عرض نتائج الرسالة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.